المقتطف

الجزء الحادي عشر من السنة السابعة عشرة

١ اوغسطس (آب) سنة ١٨٩٣ الموافق ١٨ محرم سنة ١٣١١

فقرة من تاريخ الاسكندرية

قد عاد عصر المجسطي (١) فلتقم فئة تدعو الى الخير في الادنى وفي البُعُدِ
إسكندريةُ كانت مهدَ كل غنى عقلاً ومالاً فردوها الى الجُدَدِ

وقفنا تجاه الاسكندرية اصيلاً . نجيل الفكر في ما امسى من معالمها طلولاً . ونقلب الطرف في ما عاد اليها من الرونق والرواء . وما ازدانت بهِ من المجد والبهاء . فتمثّل لنا ما فيها كأننا في احد المشاهد . وتجلّى امامنا مستقبلها كما تتجلى الارواح في المعابد . فخط القلم في وصف نشأتها هذه الطروس وما هي الاَّ زبدة ما وقفنا عليهِ في كتب الباحثين الذين يسترشد بهم في المهامه ويُستضاء بنبراسهم في الدياجي

لما انتهى الاسكندر من امر الشام ودخل مصر وطرد الفرس منها اراد ان يبني فيها مدينة تقوم مقام صور وتكون محط تجارة المشرق والمغرب . وكان في مكدونية مهندس شهير اسمهُ دينوكراتس كان قد بنى هيكل ارطاميس في افسس بعد ان حرقهُ هروستراتس الاحمق لكي يشتهر اسمهُ . فلما طبقت شهرة الاسكندر الاقطار رأى دينوكراتس ان يصنع لهُ تمثالاً لم يُصنع مثلهُ لملك من ملوك الزمان فلما مَثل بين يديهِ

(١) هو الكتاب المشهور في الفلك والنجوم الفهُ كلوديوس بطليموس الاسكندري في نحو سنة ١٦٠ للمسيح وترجمهُ العرب ودرسوهُ وتوسعوا فيهِ كثيرًا وبني المعول عليهِ في درس الفلك الى القرن السادس عشر

قال لهُ انني عزمت ان انحت جبل اثوس واصنعهُ لك تمثالاً وابني في يساره مدينة تسع عشرة آلاف من السكان واحوّل جميع الانهار التي تنبع منها الى يمينهِ فتجري منها الى البحر سيلاً متدفقاً . فسُرَّ الاسكندر بهِ وصرفهُ ولعلهُ قال في نفسهِ ان هذا الرجل قد فاقني في حب الشهرة فطلبها من حيث تتعذر . ولكنهُ تذكرهُ لما اراد بناء الاسكندريَّة فاستدعاهُ لهذه الغاية . فخطط لهُ المدينة وبنى اشهر مبانيها قبل ان ادركتهُ الوفاة

ولا تُذكر الاسكندرية القديمة الاَّ ويقرنها الذهن باسباب عظمتها وشهرتها وفي مكانتها ومدارسها وهياكلها ومنارتها فان بطليموس الاول الذي تولاها بعد الاسكندر انشأ فيها مكتبة كبيرة (كتب خانة) جمع فيها خمسين الف مجلد ودرج وزاد اعتناء البطالسة بهذه المكتبة حتى بلغ عدد كتبها ٤٩٠ الف مجلد في رواية و ٧٠٠ الف مجلد في رواية اخرى . وكانت مقسومة قسمين احدهما في السيوزيوم وهو مدرسة كبيرة لتعليم فنون الادب والآخر في السرابيوم وهو هيكل زفس سرابيس . اما القسم الاول فاحترق لما حاصر يوليوس قيصر الاسكندريَّة . واما الثاني فبقي في السرابيوم الى ايام الملك ثيودوسيوس الكبير ثم احترق اكثرهُ لما امر هذا الملك بتخريب جميع الهياكل الوثنية وذلك سنة ٣٩١ للمسيح . ولما احترق القسم الاول من هذه المكتبة عوّض بمكتبة برغامس التي اهداها مرقس انطونيوس الى الملكة كليوبترة فدخلت في السرابيوم كما سيجيء

ويقال ان ارسطاطاليس معلّم الاسكندر هو اول من جمع مكتبة وان مكتبتهُ في اصل مكتبة الاسكندريَّة هذه وان كتبهُ كلها كانت فيها وان البطالسة اكثروا من جمع الكتب اقتداء بهِ واكراماً لهُ لانهُ هو الذي هذَّب الاسكندر قائدهم الاعظم . وبلغ من غرامهم في جمع الكتب انهم كانوا يستعيرون المؤلفات من اصحابها وينسخونها ويحفظون الاصل عندهم ويردون النسخة الى صاحب المؤلف . ويفتشون عن الكتب في امتعة السياح والتجار الذين يدخلون الاسكندريَّة ويأخذون ما يجدونهُ منها

وقد اتصلت بنا اسماء كثيرين من مديري تلك المكتبة مثل كاليماكس الذي الف كتاباً كبيراً في تاريخ العلوم اليونانية وايراتستنس الذي انشأ مرصداً في الاسكندرية لرصد الافلاك واكتشف ميل دائرة البروج وقياس محيط الارض وكان بطليموس سوتر منشئ هذه المكتبة محباً للعلم مقرّباً للعلماء والَّف تاريخاً للاسكندر فُقد مع ما فقد من الكتب . ومن العلماء الذين تربّبهم اقليدس صاحب كتاب الاصول الهندسية .

وكان يمشي معهُ ذات يوم في الطريق السلطانية المؤدية الى القصر ولم يكن يمشي فيها غير الملك والذين من بيت الملك. واما الشعب فكان يصل الى القصر من طريق اخرى ذات درج صعبة المرتقى فسألهُ بطليموس أما من سبيل اسهل لمعرفة التعاليم فقال "كلاَّ اذ ليس لها سكة سلطانية" مشيرًا الى السكة التي كان يمشي فيها

ومنهم هيروفيلُس الذي شرّح جسد الانسان وسمّى اجزاءهُ المختلفة باسمائها التشريحية المعروفة بها الى الآن ويقال انهُ شرّح ستمئة جثة وشرّح بعض الاسرى وهم في قيد الحياة وهي قساوة بربرية نودُّ ان يكون بريئًا منها

اما مدارسها فأشهرها الموزيوم المشار اليهِ آنفًا ولم يكن دارًا للتحف كما يفهم من مدلول هذه الكلمة الآن بل دارًا للعلم والتعليم وكان مبنيًّا حيث بورصة الاسكندريّة الآن . اي ان الاقدمين من سكان الاسكندريّة كانوا يطلبون الغنى العقلي حيث يطلب المحدثون الغنى المالي. ولهذه المدرسة الفضل الاول في حفظ علوم اليونان ونشرها في المشرق والمغرب وبقيت علومها يانعة الى المئة السابعة للميلاد

وفي هذه المدرسة ترجمت التوراة من العبرانية الى اليونانية لا ارضاء لليهود كما ظنَّ البعض بل طلبًا للوقوف على ما فيها من العلم والارشاد والنبوات ولاسيما لان فيها نبوةً عن قيام الاسكندر وتغلبهِ على المسكونة . وقد قال يوسف بن كربون المؤرخ اليهودي (يوسيفوس) ان البطالسة دفعوا الى كل مترجم من المترجمين الاثنين والسبعين ما يعدل ثلاثة آلاف جنيه. وغنيٌّ عن البيان ان هذا الكرم الحاتمي جعل اليهود يأتون بكل كتاب ديني عندهم ليترجم كما ترجمت التوراة . وقد احترقت هذه الكتب كلها مع ما احترق من كتب الحكماء والشعراء والمؤرخين وعلماء التعاليم والطبيعيات فضاعت وضاعت معها اشعار اسكيلوس و بندار وخطب اسيوس استاذ ديموستنس والمجلد الثامن من كتاب ابولونيوس في الرياضيات ومقالات ثيوفراستُس في الطبيعيات والتاريخ الطبيعي وغير ذلك من الكتب النفيسة وذهبت كلها طعام النار ولن تعود ابد الدهر

وتعاقب على مصر عشرة من البطالسة اعتنوا كلهم بهذه المدرسة ووسعوا نطاق التعليم والبحث فيها وكان لاساتذتها الباع الطولى في التعاليم والهندسة والفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعي والتشريح والطب .وكان يتصل بها بستان للنبات تزرع فيهِ النباتات المختلفة الاقاليم وتتخذ العقاقير الطبية منها وبستان للحيوان تربى فيهِ الحيوانات الكثيرة البرية والاهلية وتدرس طبائعها

وكان هيكل سيرابيس مبنيًّا حيث عمود السواري وهو من بقايا العمدان التي كانت في ذلك الهيكل وقد اقيم فيه تذكارًا للامبراطور ديوكليتيان الظالم الذي امر بقتل المسيحيين في كل المسكونة فنكَّل الوثنيون بهم تنكيلاً . ويقال عن ثقة ان هذا الهيكل كان افخم الهياكل كلها واجملها فلما خُرِّب سنة ٣٨٩ اقيمت على انقاضه كنيسة لماريوحنا المعمدان . وكان في السرابيوم قسم كبير من مكتبة الاسكندريَّة كما تقدَّم فيه ثلثمئة الف مجلد اكثرها من كتب مكتبة برغامس المذكورة آنفًا

اما المنارة التي ذاع صيتها في الآفاق فلم تكن مبنية حيث المنارة الجديدة بل شرقيها على طرف جزيرة فاروس وبينها وبين المنارة الجديدة نحو ٣٠٣٠ قدمًا ومحل هذه المنارة الآن البرج الزفر الذي هو محل طابية قائد بك" . وقد بناها ستراتس المهندس لبطليوس فيلادلفوس ويقال ان ارتفاعها كان نحو ٦٠٠ قدم وقد ذكرها كثيرون من مؤرخي العرب وبقي جانب منها قائمًا الى القرن الثالث عشر

وكان اكثر سكان الاسكندرية من الروم واليهود وبلغ عددهم في ايام عزها ثلثمئة الف من الاحرار واكثر من ثلثمئة الف من العبيد على ما ذكر ديودورس المؤرخ . لكن بناء القسطنطينية اضرَّ بها وقلَّص ظلها وتنصَّر كثيرون من اهلها في القرن الثاني وكثر التنافس بينهم وبين الوثنيين الى ان سادت الديانة المسيحية . وضعف شأن الاسكندريَّة بعد ذلك رويدًا رويدًا حتى لم يكن بها سنة ١١٧٨ سوى ستة الآف نفس ولم يبقَ من مبانيها الفاخرة سوى التلال والاطلال

ولما تولى العزيز محمد علي باشا على هذه الديار اهتم ببناء الاسكندرية فعمرت وزحر اليها كثيرون من الغرباء فبلغ عدد سكانها سنة ١٨٣٠ ستين الفًا اي زاد عشرة اضعاف والآن لا يقل عن ثلثمئة الف نفس . وقد استرجعت ما كان لها من العظمة من حيث عدد السكان وفخامة المباني وزخرفتها ولولا ترعة السويس لاسترجعت عظمتها التجاريَّة ايضًا ويحسن ان تعاد اليها شهرتها السابقة من حيث المكاتب والمدارس وليس ذلك بعزيز على همة افاضل رجالها ولا سيما اذا التجهت الى ذلك عناية خديوينا المعظم وحكومته السنية